بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

رسالة العبادات الشرعية

والفرق بينها وبين البدعية

قال الشيخ الإمام العالِم العلاَّمة شيخ الإسلام ، بقية السَلَف الكرام ، العالِم الربانى ، المقذوف فى قلبه النور القرآنى ، أبو العباس أحمد بن تيمية الحرَّانى ، قدَّس الله روحه ، ونوَّر ضريحه ، وأسكنه فسيح الجنان :

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادى له ، ونشهد أنَّ لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، ونشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . فبلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأُمة ، وكشف الغُمة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وعبد الله مخلصاً حتى أتاه اليقين من ربه .. صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

فصل

فى الفرق بين شرعى العبادات وبدعيها

هذا باب كثر فيه الاضطراب كما كثر فى باب الحلال والحرام . فإنَّ أقواماً استحلوا بعض ما حرَّمه الله ، وأقواماً حرَّموا بعض ما أحل الله تعالى ، وكذلك أقواماً أحدثوا عبادات لم يشرعها الله بل نهى عنها . وأصل الدين أنَّ الحلال ما أحلَّه الله ورسوله ، والحرام ما حرَّمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ، ليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذى بعث الله به رسوله .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه خَطَّ خطاً وخَطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه سبيل الله ، وهذه سُبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (٢) .

وقد ذكر الله تعالى فى سورة الأنعام والأعراف وغيرهما ما ذَمَّ به المشركين حيث حرَّموا ما لم يُحَرِّمه الله تعالى ، كالبحيرة والسائبة (٣) ، واستحلُّوا ما حرَّمه الله كقتل أولادهم ، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله ، فقال تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٤) ، ومنه أشياء هى محرَّمة جعلوها عبادات كالشرك والفواحش ، مثل الطواف بالبيت عُراة ... وغير ذلك .

والكلام فى الحلال والحرام له مواضع أخر . والمقصود هنا العبادات فنقول :

● العبادات المقربة إلى الله المحبوبة له : « فرض » و «نافلة» :

العبادات التى يُتقرب بها إلى الله تعالى منها ما كان محبوباً لله ورسوله مرضياً لله ورسوله ، إما واجب وإما مستحَب ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ

---

(١) الأنعام : ١٥٣ (٢) الأنعام : ١٥٣

(٣) البحيرة : كانوا فى الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر ، شقوا أذنها وحرَّموا ركوبها ولم يطردوها عن ماء ولا مرعى وسموها « بحيرة » أى مشقوقة الأذن ..

أما السائبة : فكانوا ينذرون أنهم إذا قدموا من السفر أو برئوا من المرض أن ناقتهم سائبة ، ثم يجعلونها كالبحيرة : لا ينتفعون بها ، ويتركونها بناء على نذرهم .

وقد أبطل الله تعالى هذه العادات الجاهلية بقوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ .... ﴾ (المائدة : ١٠٣) . (البلتاجى) . (٤) الشورى : ٢١

أنه قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « ما تقرَّب إليَّ عبدى بمثل أداء ما أفترضتُ عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى ، ولئن سألنى لأعطينَّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددتُ عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

ومعلوم أنَّ الصلاة منها فرض : وهى الصلوات الخمس ، ومنها نافلة : كقيام الليل . وكذلك الصيام فيه فرض : وهو صوم شهر رمضان ، ومنه نافلة : كصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وكذلك السفر إلى المسجد الحرام فرض ، وإلى المسجدين الآخرين : مسجد النبى ﷺ وبيت المقدس - مستحَب .

وكذلك الصدقة منها ما هو فرض ومنها ما هو مستحَب ، وهو العفو كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفْوَ ﴾ (١) .

وفى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « يابن آدم ، إنك إن تنفق الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » ، والفرق بين الواجب والمستحَب له موضع آخر غير هذا ، والمقصود هنا الفرق بين ما هو مشروع سواء أكان واجباً أو مستحَباً ، وما ليس بمشروع .

• أنواع العبادات المشروعة وهى طريق التصوف الحق :

فالمشروع هو الذى يُتَقَّرب به إلى الله تعالى ، وهو سبيل الله ، وهو البر والطاعة والحسنات والخير والمعروف ، وهو طريق السالكين ، ومنهاج القاصدين والعابدين ، وهو الذى يسلكه كل مَن أراد الله وسلك طريق الزهد والعبادة ، وما يسمى بالفقر والتصوف ... ونحو ذلك .

---

(١) البقرة : ٢١٩

ولا ريب أنَّ هذا يدخل فيه الصلوات المشروعة واجبها ومستحَبها ، ويدخل فى ذلك قيام الليل المشروع وقراءة القرآن على الوجه المشروع ، والأذكار والدعوات الشرعية . وما كان من ذلك موقتاً بوقت كطرفى النهار ، وما كان متعلقاً بسبب كتحية المسجد ، وسجود التلاوة ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستخارة ، وما ورد من الأذكار والأدعية فى ذلك . وهذا يدخل فيه أمور كثيرة ، وفى ذلك من الصفات ما يطول وصفه ، وكذلك يدخل فيه الصيام الشرعى كصيام نصف الدهر وثلثه أو ثلثيه أو عُشره وهو صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، ويدخل فيه السفر الشرعى ، كالسفر إلى مكة وإلى المسجدين الآخرين ، ويدخل فيه الجهاد على اختلاف أنواعه ، وأكثر الأحاديث النبوية فى الصلاة والجهاد ، ويدخل فيه قراءة القرآن على الوجه المشروع .

والعبادات الدينية أُصولها : الصلاة والصيام والقراءة التى جاء ذكرها فى الصحيحين فى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، لما أتاه النبى ﷺ وقال : « ألم أُحدَّث أنك قلتَ : لأصومن النهار ، ولأقومن الليل ، ولأقرأن القرآن فى ثلاث » ؟ قال : بلى . قال : « فلا تفعل .. فإنك إذا فعلتَ ذلك هجمت له العين ، ونفهت له النفس » [1] ثم أمره بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، فقال : إنى أُطيق أكثر من ذلك ، فانتهى به إلى صوم يوم وفطر يوم فقال : إنى أُطيق أكثر من ذلك فقال : « لا أفضل من ذلك » ، وقال : « أفضل الصيام صيام داود عليه السلام ، كان يصوم يوماً ويُفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى . وأفضل القيام قيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثُلثه وينام سُدسه » وأمره أن يقرأ القرآن فى سبع .

• النهى عن الغلو فى العبادات المشروعة كالخوارج :

ولما كانت هذه العبادات هى المعروفة قال فى حديث الخوارج [2] الذى فى الصحيحين : « يُحَقِّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع

---

(١) هجمت : أى غارت ودخلت فى موضعها . ونفهت : أعيت وكلّت .

(٢) للتعريف بالخوارج انظر جـ ٣ هامش ص ١٠

قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » فذكر اجتهادهم بالصلاة والصيام والقراءة ، وأنهم يغلون فى ذلك حتى تُحَقَّر الصحابة عبادتهم فى جنب عبادة هؤلاء .

وهؤلاء غلوا فى العبادة بلا فقه فآل الأمر بهم إلى البدعة فقال : « يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما وجدتموهم فاقتلوهم ، فإنَّ فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » فإنهم قد استحلُّوا دماء المسلمين وكفَّروا مَن خالفهم . وجاءت فيهم الأحاديث الصحيحة ، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : صح فيهم الحديث من عشرة أوجه ، وقد أخرجها مسلم فى صحيحه وأخرج البخارى قطعة منها .

ثم هذه الأجناس الثلاثة مشروعة [1] ولكن يبقى الكلام فى القَدْر المشروع منها . وله صُنِّفَ كتاب « الاقتصاد فى العبادة » . وقال أُبَىّ بن كعب وغيره : « اقتصاد فى سُنَّة ، خير من اجتهاد فى بدعة »

والكلام فى سرد الصوم وصيام الدهر سوى يومى العيد وأيام التشريق [2] وقيام جميع اللَّيل ، هل هو مستحَب - كما ذهب إلى ذلك طائفة من الفقهاء والصوفية والعُبَّاد ، أو هو مكروه - كما دلت عليه السُّنَّة وإن كان جائزاً ؟ لكن صوم يوم وفطر يوم أفضل ، وقيام ثلث الليل أفضل ، ولبسطه موضع آخر .

إذ المقصود هنا الكلام فى أجناس عبادات غير مشروعة حدثت فى المتأخرين كالخلوات فإنها تُشَبَّه بالاعتكاف الشرعى . والاعتكاف الشرعى فى المساجد كما كان النبى ﷺ يفعله هو وأصحابه من العبادات الشرعية .

---

(١) أى الصلاة والصيام والقراءة .

(٢) أيام التشريق : هى الأيام الثلاثة التى تلى يوم النحر - الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة - ويسمى اليوم الأول منها بيوم القرُّ : لأنهم يقرون بمنى ، والثانى هو يوم النفر الأول : لأن بعض الحجيج ينصرفون من منى فيه ، أما الثالث فيسمى يوم النفر الثانى : لأن باقى الحجيج ينصرفون فى هيذا اليوم ، وسميت بـ « أيام التشريق » لأن لحوم الأضاحى تُشرَّق بها . وترمى الجمار فى يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة . (البلتاجى) .

● خلوة الصوفية واحتجاجهم عليها بتعبد النبى ﷺ فى الغار ، وبأربعين موسى عليه السلام :

وأما الخلوات فبعضهم يحتج فيها بتحنثه [1] بغار حراء قبل الوحى وهذا خطأ ، فإنَّ ما فعله ﷺ قبل النبوَّة إن كان قد شرعه بعد النبوَّة فنحن مأمورون باتباعه فيه وإلا فلا . وهو من حين نبَّأه الله تعالى لم يصعد بعد ذلك إلى غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون . وقد أقام صلوات الله عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة ودخل مكة فى عُمرة القضاء وعام الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة وأتاها فى حجة الوداع وأقام بها أربع ليال ، وغار حراء قريب منه ولم يقصده ، وذلك أنَّ هذا كانوا يأتونه فى الجاهلية ، ويقال إنَّ عبد المطلب هو سَنَّ لهم إتيانه لأنه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التى جاء بها بعد النبوَّة صلوات الله عليه كالصلاة والاعتكاف فى المساجد ، فهذه تُغنى عن إتيان حراء بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحى ، فإنه لم يكن يقرأ بل قال له الملك عليه السلام : « اقرأ » قال صلوات الله عليه وسلامه : « فقلتُ : لستُ بقارىء » ، ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة . ولهذا لما صلاَّها النبى ﷺ نهاه عنها مَن نهاه من المشركين كأبى جهل ، قال الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ [2] .

وطائفة يجعلون الخلوة أربعين يوماً ويُعَظِّمون أمر الأربعينية ويحتجون فيها بأنَّ الله تعالى واعَدَ موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، وقد رُوِىَ أنَّ موسى عليه السلام صامها ، وصام المسيح أيضاً أربعين لله تعالى وخوطب

---

(١) التحنث : التعبد ، وأصله التنزه من الحنث وهو الإثم وزناً ومعنى كالتحرج ويقرب منه التحنف ، وأصل معناه : الميل عن القبيح إلى الحسن ، والحنيفة ملة إبراهيم واختلف فى عبادة نبينا ﷺ فى غار حراء قبل النبوَّة فقيل : كانت تفكراً ، وقيل غير ذلك .

(٢) العلق : ٩ - ١٩

بعدها . فيقولون : يحصل بعدها الخطاب والتنزل ، كما يقولون فى غار حِراء : حصل بعده نزول الوحى .

وهذا أيضاً غلط ، فإنَّ هذه ليست من شريعة محمد ﷺ بل شُرِعَت لموسى عليه السلام كما شُرِعَ له السبت والمسلمون لا يسبتون ، وكما حُرِّم فى شرعه أشياء لم تُحرَّم فى شرع محمد ﷺ .. فهذا تمسك بشرع منسوخ . وذاك تمسك بما كان قبل النبوَّة .

وقد جُرِّبَ أنَّ مَن سلك هذه العبادات البدعية أتته الشياطين وحصل له تنزل شيطانى ، وخطاب شيطانى ، وبعضهم يطير به شيطانه ، وأعرف من هؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزل فنزلت عليهم الشياطين لأنهم خرجوا عن شريعة النبى ﷺ التى أُمروا بها . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) وكثير منهم لا يحد للخلوة مكاناً ولا زماناً بل يأمر الإنسان أن يخلو فى الجملة .

ثم صار أصحاب الخلوات فيهم مَن يتمسك بجنس العبادات الشرعية : الصلاة والصيام والقراءة والذكر . وأكثرهم يخرجون إلى أجناس غير مشروعة ، فمن ذلك طريقة أبى حامد (٢) ومَن تبعه ، وهؤلاء يأمرون صاحب الخلوة أن لا يزيد على الفرض ، لا قراءة ولا نظراً فى حديث نبوى ولا غير ذلك ، بل قد

---

(١) الجاثية : ١٨ - ١٩

(٢) الغزالى : أبو حامد محمد ، توفى عام ٥٠٥ هـ ، متكلم ، لقب بـ « حُجَّة الإسلام » ، ولد بالقرب من طوس بخراسان ، نشأ أولاً نشأة صوفية ثم انصرف إلى دراسة الفقه والكلام والفلسفة ، علَّم فى المدرسة النظامية ببغداد ، وكتب « تهافت الفلاسفة » وفيه كفَّر الفلاسفة أو بدَّعهم ، ثم مر بمرحلة من الشك قادته إلى الصوفية ، فترك التدريس وتبع طريق الصوفية ، وبعد عشر سنوات تجول فيها بين دمشق والقاهرة ومكة عاد إلى نيسابور ومنها إلى طوس حيث توفى ، له « إحياء علوم الدين » ، « والمنقذ من الضلال » (البلتاجى) .

يأمرونه بالذكر ، ثم قد يقولون ما يقوله أبو حامد : ذكر العامة : لا إله إلاَّ الله ، وذكر الخاصة : الله الله ، وذكر خاصة الخاصة : هو هو .

● الذكر بأسماء الله المفردة بدعة غير مشروع :

والذكر بالاسم المفرد مُظهَراً ومُضمَراً بدعة فى الشرع وخطأ فى القول واللغة ، فإنَّ الاسم المجرَّد ليس هو كلاماً لا إيماناً ولا كفراً .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ، وفى حديث آخر : « أفضل الذِكر : لا إله إلا الله » ، وقال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » والأحاديث فى فضل هذه الكلمات كثيرة صحيحة .

وأما ذكر الاسم المفَرد فبدعة لم يشرع وليس هو بكلام يُعقل ولا فيه إيمان ، ولهذا صار بعض مَن يأمر به من المتأخرين يبيِّن أنه ليس قصدنا ذكر الله تعالى ، ولكن جمع القلب على شىء معيَّن حتى تستعد النفس لما يرد عليها ، فكان يأمر مريده بأن يقول هذا الاسم مرات ، فإذا اجتمع قلبه ألقى عليه حالاً شيطانياً فيلبسه الشيطان ويُخيِّل إليه أنه قد صار فى الملأ الأعلى ، وأنه أُعطى ما لم يُعطه محمد ﷺ ليلة المعراج ولا موسى عليه السلام يوم الطور ، وهذا وأشباهه وقع لبعض مَن كان فى زماننا .

وأبلغ من ذلك مَن يقول : ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأى شىء كان ، حتى يقول : لا فرق بين قولك : يا حى ، وقولك : يا جحش . وهذا مما قاله لى شخص منهم وأنكرتُ ذلك عليه ، ومقصودهم بذلك أن تجتمع النفس حتى يتنزل فيها الشيطان .

ومنهم مَن يقول : إذا كان قصد وقاصد ومقصود فاجعل الجميع واحداً فيدخله فى أول الأمر فى وحدة الوجود .

● بطلان قول مبتدعة أهل الطريقة فى ثمراتها من وجوه :

وأما أبو حامد وأمثاله [1] ممن أمروا بهذه الطريقة فلم يكونوا يظنون أنها تفضى إلى الكفر ، لكن ينبغى أن يُعرف أنَّ البدع بريد الكفر ، ولكن أمروا المريد أن يُفرِّغ قلبه من كل شىء ، حتى قد يأمروه أن يقعد فى مكان مظلم ويغطى رأسه ويقول : اللّه اللّه ، وهم يعتقدون أنه إذا فُرِّغَ قلبه استمد بذلك فينزل على قلبه من المعرفة ما هو المطلوب ، بل قد يقولون : إنه يحصل له من جنس ما يحصل للأنبياء .

ومنهم مَن يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ، وأبو حامد يُكثر من مدح هذه الطريقة فى « الإحياء » وغيره [2] كما أنه يبالغ فى مدح الزهد ، وهذا من بقايا الفلسفة عليه . فإن المتفلسفة كابن سينا [3] وأمثاله يزعمون أنَّ كل ما يحصل فى القلوب من العلم للأنبياء وغيرهم فإنما هو من العقل الفعَّال . ولهذا يقولون : النبوَّة مكتسبة ، فإذا تَفَرَّغ صفى قلبه عندهم وفاض على قلبه من جنس ما فاض على الأنبياء ، وعندهم أنَّ موسى بن عمران ﷺ كُلِّمَ من

---

(١) يعنى بأمثاله مَن سلكوا طريقة التصوف بعد التفقه فى الدين وقلّما تفضى بأمثالهم إلى الكفر الا إذا اختلت عقولهم بالإفراط فى التقشف والاستسلام للتخيلات .

(٢) ولكنه لم يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء ولا مثله ، بل هو يُفضِّل مثل الشافعى على نفسه ، ويُفضِّل الصحابة على الشافعى ، بل بيَّن غرور بعض الصوفية وضلالهم فى ذلك فى كتاب « ذم الغرور » من الإحياء .

(٣) ابن سينا : أبو على ، ولد عام ٣٧٠ هـ ، وتوفى عام ٤٢٩ هـ ، عرف بـ « الشيخ الرئيس ابن سينا » ، ولد فى افشنه قرب بخارى ، وتوفى فى همذان . فيلسوف من كبار فلاسفة العرب وأطبائهم ، تعمق فى درس فلسفة أرسطو وتأثر أيضاً بالأفلاطونية المستحدثة . فقد قال بفيض العالم عن اللّه ، كما فعل أفلوطين ، له ميول صوفية عميقة برزت فى « الحكمة المشرقية » . من مؤلفاته المطبوعة : « القانون فى الطب » ، و « الشفاء » فى الفلسفة ، و « الإشارات والتنبيهات » فى المنطق ، و « النجاة » . ولا يزال قسم من تآليفه مخطوطاً فى خزائن الكتب ، له فى النفس القصيدة المشهورة ومطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع (البلتاجى)

سماء عقله لم يسمع الكلام من خارج ، فلهذا يقولون : إنه يحصل لهم مثل ما حصل لموسى وأعظم مما حصل لموسى .

وأبو حامد يقول : إنه سمع الخطاب كما سمعه موسى عليه السلام وإن لم يُقصد هو بالخطاب ، وهذا كله لنقص إيمانهم بالرسل وأنهم آمنوا ببعض ما جاءت به الرسل وكفروا ببعض ، وهذا الذى قالوه باطل من وجوه :

أحدها : أنَّ هذا الذى يسمونه العقل الفعَّال باطل لا حقيقة له كما قد بُسِطَ هذا فى موضع آخر

الثانى : أنَّ ما يجعله اللّه فى القلوب يكون تارة بواسطة الملائكة ، إن كان حقاً ، وتارة بواسطة الشياطين إذا كان باطلاً [1] والملائكة والشياطين أحياء ناطقون كما قد دلت على ذلك الدلائل الكثيرة من جهة الأنبياء ، وكما يدعى ذلك مَن باشره من أهل الحقائق ، وهم يزعمون أنَّ الملائكة والشياطين صفات لنفس الإنسان فقط . وهذا ضلال عظيم .

الثالث : أنَّ الأنبياء جاءتهم الملائكة من ربهم بالوحى ومنهم مَن كلَّمه اللّه تعالى فقرَّبه وناداه ، كما كلَّم موسى عليه السلام ، لم يكن ما حصل لهم مجرد قبض كما يزعمه هؤلاء .

الرابع : أنَّ الإنسان إذا فَرَّغَ قلبه من كل خاطر ، فمن أين يعلم أنَّ ما يحصل فيه حق ؟ هذا إما أن يُعلم بعقل أو سمع ، وكلاهما لم يدل على ذلك [2] .

---

(١) وأبو حامد قال هذا بعينه فى « شرح عجائب القلب » واستشهد له بحديث الترمذى والنسائى فى « الكبير » فى لَمَّة الملك بابن آدم ولَمَّة الشيطان ، فهو لا يقول إنَّ الملائكة والشياطين صفات للنفس ، بل يقول فيها ما قاله أهل السُنَّة والجماعة فى مواضع كثيرة من « الإحياء » فمن المستغرب من الشيخ إنكاره عليه .

(٢) فيه أنه إذا وافق الشرع يُعلم به أنه حق وإلا حُكِمَ بأنه باطل كما رُوِىَ عن الشيخ عبد القادر الجيلى الذى يعترف له شيخ الإسلام بالولاية والكرامات أنه رأى مرة نوراً وسمع منه خطاباً فيه أنَّ ربه يقول له : قد أحللتُ لك المحرَّمات ، فأجابه : اخسأ بالعين ، فانقلب دخاناً وقال له : نجوتَ منى بفقهك .

الخامس : أنَّ الذى قد عُلِمَ بالسمع والعقل أنه إذا فَرَّغَ قلبه من كل شىء [1] حلَّت فيه الشياطين ثم تنزلت عليه الشياطين ، كما كانت تتزل على الكُهَّان ، فإنَّ الشيطان إنما يمنعه من الدخول إلى قلب ابن آدم ما فيه من ذكر الله الذى أرسل به رسله ، فإذا خلا من ذلك تولاه الشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [2] ، وقال الشيطان فيما أخبر الله عنه : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [3] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [4] ، والمخلَصون هم الذين يعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً ، وإنما يُعبد الله بما أمر به على ألسنة رسله ، فمَن لم يكن كذلك تولته الشياطين .

وهذا باب دخل فيه أمر عظيم على كثير من السالكين واشتبهت عليهم الأحوال الرحمانية بالأحوال الشيطانية ، وحصل لهم من جنس ما يحصل للكُهَّان والسَحَرة ، وظنوا أنَّ ذلك من كرامات أولياء الله المتقين كما قد بُسِطَ الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

السادس : أنَّ هذه الطريقة لو كانت حقاً فإنما تكون فى حق مَن لم يأته رسول ، فأما مَن أتاه رسول وأمر بسلوك طريق فمَن خالفه ضل ، وخاتم الرسل ﷺ قد أمر أمته بعبادات شرعية من صلاة وذكر ودعاء وقراءة ، لم يأمرهم قط بتفريغ القلب من كل خاطر وانتظار ماينزل .

فهذه الطريقة لو قُدِّر أنها طريق لبعض الأنبياء لكانت منسوخة بشرع محمد ﷺ ، فكيف وهى طريقة جاهلية لا توجب الوصول إلى المطلوب إلا بطريق الاتفاق ، بأن يقذف الله تعالى فى قلب العبد إلهاماً ينفعه ، وهذا قد يحصل لكل أحد ليس هو من لوازم هذه الطريق ؟

---

(١) تفريغ القلب من كل شىء محال ، وإنما يجتهدون فى تفريغه من الخواطر التى تشغله عن ذكر الله ومراقبته كما صرَّح به أبو حامد .

(٢) الزخرف : ٣٦ - ٣٧ (٣) سورة ص : ٨٢ - ٨٣ (٤) الحجر : ٤٢

● تفريغ القلب من الخواطر والتخلية المشروعان وغير المشروعين :

ولكن التفريغ والتخلية التى جاء بها الرسول أن يُفرِّغ قلبه مما لا يحبه الله ويملؤه بما يحبه الله ، فيفرغه من عبادة غير الله ويملؤه بعبادة الله ، وكذلك يفرِّغه عن محبة غير الله ويملؤه بحبه الله ، وكذلك يخرج منه عند خوف غير الله ويدخل فيه خوف الله تعالى ، وينفى عنه التوكل على غير الله ويثبت فيه التوكل على الله [1] وهذا هو الإسلام المتضمن للإيمان الذى يمده القرآن ويقويه ، لا يناقضه وينافيه ، كما قال جندب وابن عمر : « تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ».

وأما الاقتصار على الذكر المجرَّد الشرعى مثل قول : لا إله إلاَّ الله - فهذا قد ينتفع به الإنسان أحياناً لكن ليس هذا الذكر وحده هو الطريق إلى الله تعالى دون ما عداه ، بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء [2] والمفضول فى وقته الذى شُرِعَ فيه أفضل من الفاضل كالتسبيح فى الركوع والسجود فإنه أفضل من القراءة ، ثم قد يُفتح على الإنسان فى العمل المفضول ما لا يُفتح عليه فى العمل الفاضل ، وقد يُيَسَّرَ عليه هذا دون هذا فيكون هذا أفضل فى حقه لعجزه عن الأفضل كالجائع إذا وجد الخبز المفضول مُتيَسِّراً عليه والفاضل متعسراً عليه فإنه ينتفع بهذا الخبز المفضول ، وشبعه واعتذاؤه به حينئذ أولى به .

---

(١) وأبو حامد يقصد كل هذا بتصوفه وفصّله فى إحيائه ، وقد أخطأ فى بعض المسائل كالمبالغة فى الزهد كأكثر العُبَّاد من السَلَف والخَلَف ، والقول بالجبر كأكثر الأشعرية ، وهذا من خطأ العلماء الاجتهادى الذى ذكر شيخ الإسلام مسائل منه عن الصحابة والتابعين وغيرهم وعذرهم فيه بتأولهم واجتهادهم .

(٢) الصوفية الشرعيون كأبى حامد يوافقونه فى كل هذا إلا أنهم يقولون بالإكثار من الذكر وقد تكرر فى القرآن الترغيب فيه .

● تحامل الشيخ على الغزالى وعدم تثبته فيما نقله عنه :

السابع : أنَّ أبا حامد يُشبِّه ذلك بنقش الصين والروم على تزويق الحائط وأولئك صقلوا حائطهم حتى بمثل ما صقله هؤلاء [1] ، وهذا قياس فاسد لأنَّ هذا الذى فرَّغ قلبه لم يكن هناك قلب آخر يحصل له به التحلية كما حصل لهذا الحائط من هذا الحائط ، بل هو يقول : إنَّ العلم منقوش فى النفس الفلكية ويسمى ذلك اللوح المحفوظ تبعاً لابن سينا [2] .

وقد بيَّنا فى غير هذا الموضع أنَّ اللوح المحفوظ الذى ذكره اللّه ورسوله ليس هو النفس الفلكية ، وابن سينا ومَن تبعه أخذوا أسماء جاء بها الشرع فوضعوا لها مسميات مخالفة لمسميات صاحب الشرع ثم صاروا يتكلمون بتلك الأسماء فيظن الجاهل أنهم يقصدون بها ما قصده صاحب الشرع ، فأخذوا مخ الفلسفة

---

(١) يشير إلى المثل الذى ضربه لتطهير القلب وهو أنَّ صُنَّاع الروم نقشوا جانباً من صفة بيت لأحد الملوك بأبدع النقوش ، وصُنَّاع الصين صقلوا الجانب الآخر حتى صار كالمرآة ، فلما زال الحجاب المضروب بينهما انطبع ذلك النقش كله فى الجانب المصقول ، فكذلك القلب الذى يُصقل بذكر اللّه تعالى ينطبع فيه بعض العلوم المكتوبة فى اللوح المحفوظ أو قلوب الملائكة .

(٢) إنما قال أبو حامد فى اللوح ما قاله علماء الشرع لا الفلاسفة ، وعبارته فى الإحياء هكذا : فكما أنَّ المهندس يُصوِّر أبنيه الدارفى بياض ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك النسخة ، فكذلك فاطر السموات والأرض كتب نسخة العالَم من أوله إلى آخره فى اللوح المحفوظ ثم أخرجه إلى الوجود على وفق تلك النسخة ا هـ .

فهو يقول : إنَّ كتابة مقادير الخلق هو من أفعال الفاطر الاختيارية ، والنفس الفلكية عند الفلاسفة قديمة أزلية بما فيها . وقال أبو حامد : إنَّ حقائق الأشياء المسطورة فى اللوح المحفوظ مسطورة فى قلوب الملائكة المقرَّبين ، وضرب مثلاً لاستفادة القلب العلم منهم ، ومن اللوح بالرؤيا الصادقة ، واستشهد لاستعداده لذلك بحديث : « سبق المفردون » وتفسيره ﷺ لهم : « بالذاكرين اللّه كثيراً والذاكرات » وهو فى « صحيح مسلم » و « المستدرك » ، واستشهد فى فصل آخر بحديث المحدثين أى الملهمين وكون عمر رضى اللّه عنه منهم . ولا تتسع هذه الحاشية لبسط هذا الموضوع .

وكسوه لحاء الشريعة وهذا كلفظ المُلك والملكوت والجبروت واللوح المحفوظ والشيطان والحدوث والقوم وغير ذلك . وقد ذكرنا من ذلك طرفاً فى الرد على الاتحادية لما ذكرنا قول ابن سبعين وابن عربى وما يوجد فى كلام أبى حامد ونحوه من أصول هؤلاء الفلاسفة الملاحدة الذين يُحرِّفون كلام اللّه ورسوله عن مواضعه كما فعلت طائفة القرامطة الباطنية [١] .

والمقصود هنا أنه لو كانت العلوم تنزل على القلوب من النفس الفلكية كما يزعم هؤلاء فلا فرق فى ذلك بين الناظر والمستدل والمُفَرِّغ قلبه ، فتمثيل ذلك بنقش أهل الصين والروم تمثيل باطل [٢] .

ومن أهل هذه الخلوات مَن لهم أذكار معيَّنة وقوت معيَّن ولهم تنزلات معروفة . وقد بسط الكلام عليها ابن عربى الطائى ومَن سلك سبيله كالتلمسانى [٣] وهى تنزلات شيطانية قد عرُفتها وخبرتُ ذلك من وجوه متعددة ، لكن ليس هذا موضع بسطها ، وإنما المقصود التنبيه على هذا الجنس .

ومما يأمرون به : الجوع والسهر والصمت مع الخلوة بلا حدود شرعية ، بل سهر مطلق ، وجوع مطلق ، وصمت مطلق ، مع الخلوة ، كما ذكر ذلك ابن عربى وغيره ، وهى تولِّد لهم أحوالاً شيطانية ، وأبو طَالب [٤] قد ذكر بعض ذلك ،

---

(١) للتعريف بالقرامطة انظر جـ ١ هامش ص ٧٥ ، ١٧٢ (البلتاجى) .

(٢) ليس فى هذا الموضوع شىء من التحقيق الذى نعهده فى كلام شيخ الإسلام والمظلوم فيه أبو حامد فإنه ليس ممن قرنه بهم من الفلاسفة واتحادية الصوفية ، ولم يقل بنزول العلوم من النفس الفلكية ، وقد فرّق بين الناظر والمستدل وبين المفرِّغ قلبه بذكر اللّه من الخواطر الشيطانية بأوضح بيان ومنها هذا التمثيل ، وكأن الشيخ لم يراجع كلامه حين كتب هذا ولم يكن مما عنى بحفظه كما يحفظ كتب الحديث وألفاظها ، ولا بمعانيه كما عنى بمذاهب الفقه وغيرها ، لأنه لم يكن يراه يستحق هذه العناية . وسبحان مَن أحاط بكل شىء علماً ، وقال فى وصف كتابه : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) .

(٣) للتعريف بابن عربى انظر جـ ١ هامش ص ١٠٩ ، و جـ ٤ هامش ص ٩ ، وانظر للتعريف بالتلمسانى جـ ١ هامش ص ١١٢ ، و جـ ٤ هامش ص ٢٨ (البلتاجى) .

(٤) أبو طالب المكى : محمد بن على بن عطية ، توفى عام ٣٨٩ هـ ، صوفى واعظ من أهل الجبل ، نشأ بمكة ، وكانت له مجاهدات كثيرة ، ورياضات نفسية عديدة ، تتلمذ على أبى الحسن بن سالم البصرى ، شيخ السالمية -- وتلميذ سهل التسترى - تنسب إلى المكى عبارات تذكر المراجع أنّ الناس هجروه بشأنها ، ومن أشهر مؤلفاته « قوت القلوب » الذى تأثر به الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » (البلتاجى) .

لكن أبو طالب أكثر اعتصاماً بالكتاب والسُّنَّة من هؤلاء ولكن يذكر أحاديث كثيرة ضعيفة بل موضوعة ، من جنس أحاديث المسبعات التى رواها عن الخضر عن النبى ﷺ وهو كذب محض وإن كان ليس فيه إلا قراءة قرآن ، ويذكر أحياناً عبادات بدعية من جنس ما بالغ فى معراج الجوع هو وأبو حامد وغيرهما ، وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب ، كلما جف نقص الأكل [١] .

وذكروا صلوات الأيام والليالى ، وكلها كذب موضوعة ، ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئاً من الخيالات الفاسدة وليس هذا موضع بسط ذلك .

• العزلة المشروعة وغير المشروعة :

وإنما الغرض التنبيه بهذا على جنس من العبادات البدعية ، وهى الخلوات البدعية سواء قُدِّرت بزمان أو لم تُقَدَّر لما فيها من العبادات البدعية . إما التى جنسها مشروع ولكن غير مقدَّرة ، وإما ما كان جنسه غير مشروع ، فأما الخلوة والعُزلة والانفراد المشروع فهو ما كان مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب [٢] .

فالأول كاعتزال الأمور المحرَّمة ومجانبتها كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [٣] ، ومنه قوله تعالى عن الخليل : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [٤] ، وقوله عن أهل الكهف : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ [٥] فإنَّ أولئك لم يكونوا فى مكان فيه جمعة ولا جماعة ، ولا مَن يأمر بشرع نبى فلهذا أووا إلى الكهف وقد قال موسى : ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ [٦] .

---

(١) إنَّ بعض هذه الرياضات لم يكونوا يعدونها عبادة مطلوبة شرعاً بل تجارب نافعة كتقليل الطعام بالتدريج الذى يؤمن به ضرر تغيير العادة .

(٢) ومنه ما يقوم الدليل على شرعية جنسه وإن لم يرد نص فى الأمر به بعينه ، وقد بسط أبو حامد فى كتاب « العزلة » من الإحياء فوائد العزلة وغوائلها لمعرفة الراجح من المرجوح منها .

(٣) الأنعام : ٦٨ (٤) مريم : ٤٩

(٥) الكهف : ١٦ (٦) الدخان : ٢١

وأما اعتزال الناس فى فضول المباحات وما لا ينفع ، وذلك بالزهد فيه فهو مستحَب وقد قال طاوس : نِعْمَ صومعة الرجل بيته يكف فيه بصره وسمعه .

وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل فتخلى فى بعض الأماكن مع محافظته على الجمعة والجماعة ، فهذا حق كما فى الصحيحين أنَّ النبى ﷺ سُئِلَ : أى الناس أفضل ؟ قال : « رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة [1] طار إليها يتتبع الموت مظانه ، ورجل معتزل فى شعب من الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويدع الناس إلا من خير » . وقوله : « يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة » دليل على أنَّ له مالاً يزكيه وهو ساكن مع ناس يُؤذَّن بينهم وتُقام الصلاة فيهم فقد قال صلوات الله عليه : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تُقام فيهم الصلاة جماعة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان » ، وقال : « عليكم بالجماعة ، فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم » .

* * *

فصل

فى تمثل الشياطين لأهل الخلوات وغيرهم بصورة الصالحين

وهذه الخلوات قد يقصد أصحابها الأماكن التى ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يُصَلَّى فيه الصلوات الخمس ، إما مساجد مهجورة وإما غير مساجد مثل الكهوف والغيران التى فى الجبال ، ومثل المقابر لا سيما قبر مَن يحسن به الظن ومثل المقابر التى يقال إنَّ بها أثر نبى أو رجل صالح ، ولهذا يحصل لهم فى هذه المواضع أحوال شيطانية ، يظنون أنها كرامات رحمانية .

فمنهم مَن يرى أنَّ صاحب القبر قد جاء إليه وقد مات من سنين كثيرة ويقول أنا فلان ، وربما قال له : نحن إذا وُضِعْنا فى القبر خرجنا كما للتونسى مع نعمان السلامى .

---

(١) الهيعة : الصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو .

والشياطين كثيراً ما يتصورون بصورة الإنس فى اليقظة والمنام ، وقد تأتى لمن لا يعرف فتقول : أنا الشيخ فلان والعالم فلان ، وربما قالت : أنا أبو بكر وعمر ، وربما قال : أنا المسيح أنا موسى أنا محمد ، وقد جرى مثل ذلك أنواع أعرفها [١] وثَمَّ مَن يُصَدِّق بأنَّ الأنبياء يأتون فى اليقظه فى صورهم ، وثَمَّ شيوخ لهم زهد وعلم ودين يُصَدِّقون بمثل هذا .

ومن هؤلاء مَن يظن أنه حين يأتى إلى قبر نبى أنَّ النبى يخرج من قبره فى صورته فيكلمه . ومن هؤلاء مَن رأى فى دائر الكعبة صورة شيخ قال إنه إبراهيم الخليل ، ومنهم مَن يظن أنَّ النبى ﷺ خرج من الحجرة وكلمه ، وجعلوا هذا من كراماته ، ومنهم مَن يعتقد أنه إذا سأل المقبور أجابه .

وبعضهم كان يحكى أنَّ ابن منده [٢] كان إذا أشكل عليه حديث جاء إلى الحجرة النبوية ودخل فسأل النبى ﷺ عن ذلك فأجابه . وآخر من أهل المغرب حصل له مثل ذلك ، وجعل ذلك من كراماته ، حتى قال ابن عبد البر [٣] لمن ظن

---

(١) من ذلك أنه ذُكِرَ له رحمه الله أنه رؤى فى بعض البلاد يعظ التتار وهو لم يذهب إلى تلك البلاد ، فعلّل ذلك بقوله : لعل بعض إخواننا من مسلمى الجن تمثّل فى صورتنا وصار يعظ هؤلاء الناس لأجل أن يُقبل وعظه . ولم يقل إنَّ ذلك شيطان لأنه كان يأمر بالخير ، وبناءً عليه لا ينبغى أن يقال فيمن يرون بعض الأنبياء أو الصحابة يأمرونهم بالحق والخير أنهم رأوا شياطين بصورتهم تأمرهم بذلك وإنما يصح أن يُقال ذلك فيمن يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف شرعًا كما وقع للشيخ عبد القادر والتحقيق أنَّ أكثر هذه الصور خيالية سببها كثرة الفكر .

(٢) ابن منده : أبو عبد الله محمد بن إسحاق الأصفهانى ، توفى عام ٣٩٥ هـ ، من كبار حفّاظ الحديث ، مؤرخ ، رحل فى طلب الحديث إلى البلاد الشاسعة وأكثر من التصنيف فيه ، من آثاره : « طبقات الصحابة والتابعين » ، و « تاريخ أصبهان » ، و « فتح الباب فى الكنى والألقاب » . (البلتاجى)

(٣) ابن عبد البر : يوسف بن عبد البر ، توفى عام ٤٦٣ هـ ، ولد فى قرطبة وتوفى فى شاطبة ، فقيه مالكى مهر فى الحديث والرواية حتى نُعتَ بحافظ المغرب ، أعظم محدثى زمانه فى أسماء الصحابة ، تولى القضاء فى لشبونة ، له « الاستيعاب فى معرفة الأصحاب » ، و « جامع بيان العلم وفضله » (البلتاجى) .

ذلك : ويحك !! أترى هذا أفضل من السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار ؟ فهل فى هؤلاء مَن سأل النبى ﷺ بعد الموت وأجابه ؟ وقد تنازع الصحابة فى أشياء ، فهلاّ سألوا النبى ﷺ فأجابهم ، وهذه ابنته فاطمة تنازع فى ميراثه فهلاّ سألته فأجابها ؟ (١) .

* * *

فصل

فى أنَّ الاتباع للرسول صلى الله عليه وسلم إنما يكون فيما كان مقصوداً من فعله للقُربة لا العادة

والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين قد أمرنا أن نؤمن بما أُوتوه وأن نقتدى بهم وبهداهم ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٣) ، ومحمد ﷺ خاتم النبين لا نبى بعده ، وقد نسخ بشرعه ما نسخه

---

(١) فى هذا أنه إن صح ما ذكروه لا يقتضى أن يكون مَن يرى ذلك أفضل من المهاجرين والأنصار ولا من كل مَن لا يرى ما رآه ، إذ يوجد فى المفضول ما لا يوجد فى الفاضل ولا الأفضل كما بيّنه المؤلف فى رسالة المعجزات والكرامات . وأما المسألة فى نفسها فلا شك أنّ أكثر ما يُروى فى رؤية الأرواح تخيلات تعرض للمستعدين لها من المرتاضين ولا سيما أصحاب الأمزجة العصبية ولذلك نرى كل واحد منهم ينقل عنها ما يوافق اعتقاده ومعارفه من حق أو باطل . وبعض الصوفية وغيرهم يذكرون فرقاً بين الرؤية الخيالية التى تشبه الرؤيا المنامية وبين رؤية الأرواح الحقيقية وهذه المسألة قد شغلت فريقاً من علماء النفس وغيرهم فى هذا العصر ويحكون فيها وقائع غريبة ، ولما تثبت للجماهير ببرهان علمى ولا بتجربة واضحة لا لبس فيها .

(٢) آل عمران : ٨٤ (٣) الأنعام : ٩٠

من شرع غيره ، فلم يبق طريق إلى الله إلا اتباع محمد ﷺ فما أمر به من العبادات أمر إيجاب أو استحباب فهو مشروع وما رغب فيه وذكر ثوابه وفضله .

ولا يجوز أن يُقال : إنَّ هذا مستحَب أو مشروع إلا بدليل شرعى ، ولا يجوز أن يُثبت شريعة بحديث ضعيف ، لكن إذا ثبت أنَّ العمل مستحَب بدليل شرعى ، وروى له فضائل بأسانيد ضعيفة جاز أن تروى إذا لم يعلم أنها كذب ، وذلك أن مقادير الثواب غير معلومة ، فإذا روى فى مقدار الثواب حديث لا يعرف أنه كذب لم يجز أن يُكَذَّب به ، وهذا هو الذى كان للإمام أحمد بن حنبل وغيره يرخصون فيه وفى روايات أحاديث الفضائل . وأما أن يثبتوا أنَّ هذا عمل مستحَب مشروع بحديث ضعيف فحاشا لله . كما أنهم إذا عرفوا أنَّ الحديث كذب فإنهم لم يكونون يستحلون روايته إلا أن يثبتوا أنه كذب لقول النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « مَن روى عنى حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » .

وما فعله النبى ﷺ على وجه التعبد فهو عبادة يشرع التأسى به فيه . فإذا تخصص زمان أو مكان بعبادة كان تخصيصه بتلك العبادة سُنَّة كتخصيصه مقام إبراهيم بالصلاة فيه ، فالتأسى به أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذى فعل لأنه فعل .

وذلك إنما يكون بأن يقصد مثلما قصد ، فإذا سافر لحج أو عُمرة أو جهاد وسافرنا لذلك كنا متبعين له ، وكذلك إذا ضرب لإقامة حد ، بخلاف مَن شاركه فى السفر وكان قصده غير قصده أو شاركه فى الضرب وكان قصده غير قصده ، فهذا ليس بمتابع له ، ولو فعل فعلاً بحكم الاتفاق مثل نزوله فى السفر بمكان ، أو أن يصب فى إداوته ماءً فصبَّه فى أصل شجرة ، أو أن تمشى راحلته فى أحد جانبى الطريق ... ونحو ذلك ، فهل يُستحَب قصد متابعته فى ذلك ؟ كان ابن عمر يحب أن يفعل مثل ذلك . وإما الخلفاء الراشدون وجمهور الصحابة فلم يستحبوا ذلك لأنَّ هذا ليس بمتابعة له ، إذ المتابعة لا بد فيها من القصد ، فإذا

لم يقصد هو ذلك الفعل بل حصل له بحكم الاتفاق [1] كان فى قصده غير متابع له ، وابن عمر رحمه الله يقول : وإن لم يقصده [2] لكن نفس فعله حسن على أى وجه كان فأحب أن أفعل مثله ، إما لأن ذلك زيادة فى محبته وإما لتركه مشابهته .

• أماكن الأنبياء فى إقامتهم وسفرهم لا تُقصد بعبادة ولا زيارة :

ومن هذا الباب إخراج التمر فى صدقة الفطر لمن ليس ذلك قوته ، وأحمد قد وافق ابن عمر على مثل ذلك ويرخص فى مثل ما فعله ابن عمر ، وكذلك رَخَّص أحمد فى التمسح بمقعده من المنبر اتباعاً لابن عمر . وعن أحمد فى التمسح بالمنبر روايتان : أشهرهما أنه مكروه كقول الجمهور . وأما مالك وغيره من العلماء فيكرِّهون هذه الأمور وإن فعلها ابن عمر فإنَّ أكابر الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم لم يفعلها ، فقد ثبت بالإسناد الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان فى السفر فرآهم ينتابون مكاناً يصلون فيه فقال : ما هذا ؟ قالوا : مكان صلَّى فيه رسول الله ﷺ فقال : أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد ؟ إنما هلك مَن كان قبلكم بهذا ، مَن أدركته فيه الصلاة فليُصَلِّ فيه وإلا فليمض . وهكذا للناس قولان فيما فعله من المباحات على غير وجه القصد ، هل متابعته فيه مباحة فقط أو مستحَبة على قولين فى مذهب أحمد وغيره كما قد بُسِطَ ذلك فى موضعه ، ولم يكن ابن عمر ولا غيره من الصحابة يقصدون الأماكن التى كان ينزل فيها ويبيت فيها مثل بيوت أزواجه ومثل مواضع نزوله فى مغازيه ، وإنما كان الكلام فى مشابهته فى صورة الفعل فقط وإن كان هو لم يقصد التعبد به ، فأما الأمكنة نفسها فالصحابة متفقون على أنه لا يُعظَّم منها إلا ما عظَّمه الشارع .

* * *

(١) وقد نبَّه ﷺ لمثل هذا لئلا يُقصد فقال فى نسكه فى حجة الوداع : « وقفتُ هنا وعرفة كلها موقف . ومِنى كلها منحر » وإذا لم يرد أن يتبع فى مثل هذه الأمور الاتفاقية فى النُّسك فغير النُّسك أولى ، ومخالفة ابن عمر لجمهور الصحابة فى هذا يُعذر فيها بحسن نيَّته ولا يُتبع .

(٢) أى لم يقصد النبى ﷺ هذا الفعل .

فصل

فى النهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد

وأما قصد الصلاة والدعاء والعبادة فى مكان لم يقصد الأنبياء فيه الصلاة والعبادة بل رُوِىَ أنهم مروا به ونزلوا فيه أو سكنوه ، فهذا كما تقدم لم يكن ابن عمر ولا غيره يفعله فإنه ليس فيه متابعتهم لا فى عمل عملوه ولا قصد قصدوه ، ومعلوم أنَّ الأمكنة التى كان النبى ﷺ يحل فيها إما فى سفره وإما فى مقامه مثل طرقه فى حجه وغزواته ومنازله فى أسفاره ، ومثل بيوته التى كان يسكنها والبيوت التى كان يأتى إليها أحياناً [1] .... فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك ».

فهذه نصوصه الصريحة توجب تحريم اتخاذ قبورهم مساجد مع أنهم مدفونون فيها ، وهم أحياء فى قبورهم ، ويستحَب إتيان قبورهم للسلام عليهم ، ومع هذا يحرم إتياتها للصلاة عندها واتخاذها مساجد .

ومعلوم أنَّ هذا إنما نهى عنه لأنه ذريعة إلى الشرك ، وأراد أن تكون المساجد خالصة للّه تُبنَى لأجل عبادته فقط ، لا يشركه فى ذلك مخلوق . فإذا بُنِىَ المسجد لأجل ميت كان حراماً ، فكذلك إذا كان لأثر آخر ، فإنَّ الشرك فى الموضعين حاصل ، لهذا كانت النصارى يبنون الكنائس على قبر النبى والرجل الصالح وعلى أثره وباسمه ، وهذا الذى خاف عمر رضى اللّه عنه أن يقع فيه

---

(١) سقط من هنا ورقة من الأصل . والظاهر من سياق الكلام أنه تكلم فيه على ما اتخذه الناس من القبور والأماكن محال عبادة . وأن ذلك غير مشروع . واحتج على ذلك بأحاديث . منها حديث : « إنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد ... إلخ » . ويُعلم تفصيل هذا من كتاب التوسل والوسيلة له وهو مطبوع مشهور .

المسلمون وهو الذى قصد النبى ﷺ منع أمته منه ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ، وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (٣) .

ولو كان هذا مستحباً لكان يُستحَب للصحابة والتابعين أن يُصَلّوا فى جميع حُجَر أزواجه وفى كل مكان نزل فيه فى غزواته أو أسفاره ، ولكان يُستحَب أن يبتوا هناك مساجد ، ولم يفعل السَلَف شيئاً من ذلك .

ولم يشرع الله تعالى للمسلمين مكاناً يُقصد للصلاة إلا المسجد ، ولا مكاناً يُقصد للعبادة إلا المشاعر ، فمشاعر الحج كعرفة ومزدلفة ومنى تُقصد بالذكر والدعاء والتكبير لا الصلاة ، بخلاف المساجد ، فإنها هى التى تُقصد للصلاة ، وما ثَمَّ مكان يُقصد بعينه إلا المساجد والمشاعر ، وفيها الصلاة والنُسك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ (٤) وما سوى ذلك من البِقاع فإنه لا يُستحَب قصد بقعة بعينها للصلاة ولا الدعاء ولا الذكر ، إذ لم يأت فى شرع الله ورسوله قصدها لذلك وإن كان مسكناً لنبى أو منزلاً أو ممراً .

فإنَّ الدين أصله متابعة النبى ﷺ وموافقته بفعل ما أمرنا به وشرعه لنا وسَنَّه لنا ، ونقتدى به فى أفعاله التى شرع لنا الاقتداء به فيها بخلاف ما كان من خصائصه .

---

(١) الجن : ١٨ (٢) الأعراف : ٢٩

(٣) التوبة : ١٧ - ١٨ (٤) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣

● شرط التأسى به صلى الله عليه وسلم : « التفرقة بين قُرب العبادات ومباح العادات » :

فأما الفعل الذى لم يشرعه هو لنا ولا أمرنا به ولا فعله فعلاً سَنَّ لنا أن نتأسى به فيه ، فهذا ليس من العبادات والقُرَب ، فاتخاذ هذا قُربة مخالفة له ﷺ ، وما فعله من المباحات على غير وجه التعبد يجوز لنا أن نفعله مباحاً كما فعله مباحاً ، ولكن هل يُشرع لنا أن نجعله عبادة وقُربة ؟ فيه قولان كما تقدم ، وأكثر السَلَف والعلماء على أنّا لا نجعله عبادة وقُربة بل نتبعه فيه ، فإن فعله مباحاً فعلناه مباحاً ، وإن فعله قُربة فعلناه قُربة . ومَن جعله عبادة رأى أنّ ذلك من تمام التأسى به والتشبيه به ، ورأى أنّ فى ذلك بركة لكونه مختصاً به نوع اختصاص [1] .

* * *

فصل

فى نفور المتصوفة من العلم والعلماء ، ونفور هؤلاء منهم

وأهل العبادات البدعية يُزَيِّن لهم الشيطان تلك العبادات ويُبَغِّض إليهم السُبل الشرعية ، حتى يُبَغِّضهم فى العلم والقرآن والحديث ، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره ، وقد يُبَغِّض إليهم جنس الكتاب فلا يحبون كتاباً ولا مَن معه كتاب ولو كان مصحفاً أو حديثاً ، كما حكى النصر آباذى [2] أنهم كانوا

---

(١) أى هذا مدرك اجتهاد مخالفى جمهور السَلَف وأئمة الأمصار فى المسألة ومدرك الجمهور أقوى ، فإنّ التعبد بما لم يجعله الشارع عبادة شرع لم يأذن به الله وغلو فى الدين ، وكلاهما من عظائم الموبقات المذمومة فى القرآن ، وقصد التبرك لا يبيح مخالفته فى أصل التشريع وكون دينه وسطاً لا غلو فيه .

(٢) هو أبو الحسن النصر آباذى من فقهاء الرى (البلتاجى) .

يقولون : يدع علم الخِرق ، ويأخذ علم الورق ، قال : ولست أستر ألواحى منهم ، فلما كبرت احتاجوا إلى علمى ، وكذلك حكى السرى السقطى [1] أنّ واحداً منهم دخل عليه فلما رأى عنده محبرة وقلماً خرج ولم يقعد عنده . ولهذا قال سهل بن عبد الله التسترى [2] : يامعشر الصوفية ، لا تفارقوا السواد على البياض ، فما فارق أحد السواد على البياض إلا تزندق . وقال الجنيد [3] : علمنا هذا مبنى على الكتاب والسُنّة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتَدى به فى هذا الشأن . وكثير من هؤلاء ينفر ممن يذكر الشرع أو القرآن أو يكون معه كتاب أو يكتب ، وذلك أنهم استشعروا أنّ هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم فصارت شياطينهم تُهرِّبهم من هذا ، كما يُهَرِّب اليهودى والنصرانى ابنه أن يسمع كلام المسلمين حتى لا يتغير اعتقاده فى دينه ، وكما كان قوم نوح يجعلون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم لئلا يسمعوا كلامه ولا يروه . وقال الله تعالى عن المشركين : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [4] ، وقال تعالى :

---

(١) هو سرى بن المغلّس ، توفى عام ٢٥٣ هـ ، صوفى من الكبار ، أستاذ الجنيد وخاله ، ولد وتوفى فى بغداد ، قال : إنّ المحبين يفوقون فى النعيم تُباع موسى وعيسى ومحمد ، وقد لامه ابن حنبل على هذه الأقوال . (البلتاجى) .

(٢) سهل التسترى : توفى عام ٢٨٣ هـ ، من كبار الصوفيين ، ولد فى تستر بالأهواز وتوفى منفياً بالبصرة لقوله إنّ التوبة فريضة ، له « تفسير القرآن العظيم » ، و « مجموعة أجوبة » نقلها محمد بن سالم مؤسس مذهب السالمية . من تلاميذه الحلاج (البلتاجى) .

(٣) الجنيد : هو أبو القاسم الزجاج القواريرى ، توفى عام ٢٩٧ هـ ، صوفى وزاهد بغدادى ، ولد وتوفى ببغداد . تلقى العلوم الصوفية عن خاله السرى السقطى ، سيد الطريقة الصوفية ، حج ثلاثين حجة ماشياً ، أتباعه ومريدده لا يحصيهم عاد وهم منتشرون فى أنحاء العالم (البلتاجى) .

(٤) فصلت : ٢٦

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ (١) . وهم من أرغب الناس فى السماع البدعى ، سماع المعازف ، ومن أزهدهم فى السماع الشرعى سماع آيات الله تعالى .

وكان مما زَيَّن لهم طريقهم أن وجدوا كثيراً من المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة الله تعالى وسلوك سبيله ، إما اشتغالاً بالدنيا وإما بالمعاصى ، وإما جهلاً وتكذيباً بما يحصل لأهل التأله والعبادة ، فصار وجود هؤلاء مما ينفرهم وصار بين الفريقين نوع تباغض يشبه من بعض الوجوه ما بين أهل الملّتين : هؤلاء يقولون : ليس هؤلاء على شىء ، وهؤلاء يقولون : ليس هؤلاء على شىء ، وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مما فى الكتب .

● دعوى الصوفية الأخذ عن الله بلا واسطة :

فمنهم مَن يظن أنه يُلْقن القرآن بلا تلقين . ويحكون أنَّ شخصاً حصل له ذلك . وهذا كذب . نعم .. قد يكون سمع آيات الله فلما صفى نفسه تذكرها فتلاها . فإنَّ الرياضة تصقل النفس فيذكر أشياء كان قد نسيها ، ويقول بعضهم أو يُحكى أنَّ بعضهم قال : أخذوا علمهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت ، وهذا يقع ، لكن منهم مَن يظن ما يُلْقَى إليه من خطاب أو خاطر هو من الله تعالى بلا واسطة ، وقد يكون من الشيطان ، وليس عندهم فرقان يفرق بين الرحمانى والشيطانى فإنَّ الفرق الذى لا يخطئ هو القرآن والسُنَّة ، فما وافق الكتاب والسُنَّة فهو حق ، وما خالف ذلك فهو خطأ .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ (٢) .

---

(١) المدثر : ٤٩ - ٥١ (٢) الزخرف : ٣٦ - ٣٨

وذكر الرحمن هو ما أنزله على رسوله قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٧) .

ثم إنَّ هؤلاء لما ظنوا أنَّ هذا يحصل لهم من الله بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من أتباع الرسول . يقول أحدهم : فلان عطيته على يد محمد وأنا عطيتي من الله بلا واسطة ، ويقول أيضاً : فلان يأخذ عن الكتاب وهذا الشيخ يأخذ عن الله ... ومثل هذا .

---

(١) الأنبياء : ٥٠ (٢) القلم : ٥٢ (٣) طه : ١٢٣ - ١٢٦
(٤) الإسراء : ٩ - ١٠ (٥) الشورى : ٥٢ - ٥٣ (٦) إبراهيم : ١
(٧) الأعراف : ١٥٧

وقول القائل : « يأخذ عن الله » و « أعطانى الله » لفظ مجمل ، فإن أراد به الإعطاء والأخذ العام وهو الكونى الخلقى - أى بمشيئة الله وقُدرته حصل لى هذا ، فهو حق ، ولكن جميع الناس يشاركونه فى هذا ، وذلك الذى أخذ عن الكتاب هو أيضاً عن الله أخذ بهذا الاعتبار ، والكفار من المشركين وأهل الكتاب أيضاً هم كذلك ، وإن أراد أنَّ هذا الذى حصل لى هو مما يحبه الله ويرضاه ويُقَرِّب إليه ، وهذا الخطاب الذى يُلقَى إلىَّ هو كلام الله تعالى : فهنا طريقان :

● وحى الشياطين والفُرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان :

أحدهما : أن يقال له : من أين لك أنَّ هذا إنما هو من الله لا من الشيطان وإلقائه ووسوسته ؟ فإنَّ الشياطين يوحون إلى أوليائهم وينزلون عليهم كما أخبر الله تعالى بذلك فى القرآن ، وهذا موجود كثيراً فى عُبَّاد المشركين وأهل الكتاب وفى الكُهَّان والسَحَرة ونحوهم ، وفى أهل البدع بحسب بدعتهم . فإنَّ هذه الأحوال قد تكون شيطانية وقد تكون رحمانية ، فلا بد من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، والفرقان إنما هو الفرقان الذى بعث الله به محمداً ﷺ فهو : ﴿ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (١) ، وهو الذى فَرَّق اللهَ به بين الحق والباطل وبينَ الهدى والضلالَ وبين الرشاد والغى ، وبين طريق الجنة وطريق النار ، وبيَّن سبيل أولياء الرحمن وسبيل أولياء الشيطان . كما قد بُسِطَ الكلام على هذا فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أنه يُقال لهم : إذا كان جنس هذه الأحوال مشتركاً بين أهل الحق وأهل الباطل فلا بد من دليل يُبيِّن أنَّ ماحصل لكم هو الحق .

الطريق الثانى : أن يُقال : بل هذا من الشيطان لأنه مخالف لما بعث الله به محمداً ﷺ وذلك أنه ينظر فيما حصل له وإلى سببه وإلى غايته ، فإن كان

---

(١) الفرقان : ١

السبب عبادة غير شرعية مثل أن يُقال له : اسجد لهذا الصنم حتى يحصل لك المراد ، أو استشفع بصاحب هذه الصورة حتى يحصل لك المطلوب ، أو ادع هذا المخلوق واستغث به مثل أن يدعو الكواكب كما يذكرونه فى كتب دعوة الكواكب ، أو أن يدعو مخلوقاً كما يدعو الخالق سواء أكان المخلوق مَلَكاً أو نبياً أو شيخاً ، فإذا دعاه كما يدعى الخالق سبحانه إما دعاء عبادة وإما دعاء مسألة صار مشركاً به ، فحينئذ ماحصل له بهذا السبب حصل بالشرك كما كان يحصل للمشركين ، وكانت الشياطين تتراءى لهم أحياناً وقد يخاطبونهم من الصنم ويخبرونهم ببعض الأمور الغائبة أو يقضون لهم بعض الحوائج ، فكانوا يبذلون لهم هذا النفع القليل بما اشتروه منهم من توحيدهم وإيمانهم الذى هلكوا بزواله كالسحر قال تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

• سماع المعازف كالسُكر يُفضى إلى الفسق والقتل :

وكذلك قد يكون سببه سماع المعازف ، وهذا كما يُذكر عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال : « اتقوا الخمر فإنها أم الخبائث . وإنَّ رجلاً سأل امرأة فقالت : لا أفعل حتى تسجد لهذا الوثن ، فقال : لا أشرك بالله ، فقالت : أو تقتل هذا الصبى ؟ فقال : لا أقتل النفس التى حرَّم الله ، فقالت : أو تشرب هذا القدح ؟ فقال : هذا أهون ، فلما شرب الخمر قتل الصبى وسجد للوثن وزنى بالمرأة » .

---

(١) البقرة : ١٠٢

والمعازف هى خمر النفوس ، تفعل بالنفوس أعظم مما تفعل حميا الكؤوس ، فإذا سكروا بالأصوات حَلَّ فيهم الشرك ومالوا إلى الفواحش وإلى الظلم فيشركون ويقتلون النفس التى حرَّم اللّه ويزنون .

وهذه الثلاثة موجودة كثيراً فى أهل سماع المعازف : سماع المُكَاء والتصدية ، أما الشرك فغالب عليهم بأن يحبوا شيخهم أو غير مثل ما يحبون اللّه ، ويتواجدون على حبه .

وأما الفواحش .. فالغناء رقية الزنا وهو من أعظم الأسباب لوقوع الفواحش ، ويكون الرجل والصبى والمرأة فى غاية العِفَّة والحرية حتى يحضره فتنحل نفسه وتسهل عليه الفاحشة ويميل لها فاعلاً أو مفعولاً به أو كلاهما كما يحصل بين شاربى الخمر وأكثر .

وأما القتل .. فإنَّ قتل بعضهم بعضاً فى السماع كثير يقولون : قتله بحاله ، ويعدون ذلك من قوته ، وذلك أنَّ معهم شياطين تحضرهم فأيهم كانت شياطينه أقوى قتل الآخر ، كالذين يشربون الخمر ومعهم أعوان لهم فإذا شربوا عربدوا فأيهم كانت أعوانه أقوى قتل الآخر ، وقد جرى مثل هذا لكثير منهم ، ومنهم مَن يقتل إما شخصاً وإما فرساً أو غير ذلك بحاله ثم يقوم صاحب الثأر ويستغيث بشيخه فيقتل ذلك الشخص وجماعة معة إما عشرة وإما أقل أو أكثر كما جرى مثل هذا لغير واحد ، وكان الجُهَّال يحسبون هذا من باب الكرامات .

فلما تبيَّن لهم أنَّ هذه أحوال شيطانية ، وأنَّ هؤلاء معهم شياطين تعينهم على الإثم والعدوان عَرَفَ ذلك مَن بصَّره اللّه تعالى وانكشف التلبيس والغش الذى كان لهؤلاء .

وكنتُ فى أوائل عمرى حضرتُ مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة فكانوا من خيار أهل هذه الطبقة ، فبتنا بمكان وأرادوا أن يقيموا سماعاً وأن أحضر معهم ، فامتنعتُ من ذلك فجعلوا لى مكاناً منفرداً قعدتُ فيه ، فلما

سمعوا وحصل الوَجد والحال صار الشيخ الكبير يهتف بى فى حال وجده ويقول : يا فلان ، قد جاءك نصيب عظيم تعال خذ نصيبك ، فقلت فى نفسى ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا : أنتم فى حِلٍّ من هذا النصيب فكل نصيب لا يأتى على طريق محمد بن عبد اللّه فإنى لا آكل منه شيئاً . وتبيَّن لبعض مَن كان فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين وكان فيهم مَن هو سكران بالخمر .

والذى قلته معناه أنَّ هذا النصيب وهذه العطية والموهبة والحال سببها غير شرعى ، ليس هو طاعة للّه ورسوله ولا شرعها الرسول ، فهو مثل مَن يقول : تعال اشرب معنا الخمر ونحن نعطيك هذا المال ، أو عَظِّم هذا الصنم ونحن نوليك هذه الولاية ... ونحو ذلك .

• تلاعب الشياطين بمبتدعة الصوفية ونذورهم الشركية :

وقد يكون سببه نذر لغير اللّه سبحانه وتعالى مثل أن ينذر لصنم أو كنيسة أو قبر أو نجم أو شيخ ... ونحو ذلك من النذور التى فيها شِرك ، فإذا أشرك بالنذر فقد يعطيه الشيطان بعض حوائجه كما تقدم فى السحر ، وهذا بخلاف النذر للّه تعالى ، فإنه ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتى بخير وإنما يُستخرَج به من البخيل » ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه ، وفى رواية : « فإنَّ النذر يُلقِى ابن آدم إلى القَدَر » ، فهذا المنهى عنه هو النذر الذى يجب الوفاء به منهى عن عقده ، ولكن إذا كان قد عقده فعليه الوفاء به كما فى صحيح البخارى عن النبى ﷺ أنه قال : « مَن نَذَرَ أن يطيع اللّه فليطعه ، ومَن نَذَرَ أن يعصى اللّه فلا يعصه » .

وإنما نهى عنه ﷺ لأنه لا فائدة فيه إلا التزام ما التزمه وقد لا يرضى به فيبقى إثماً ، وإذا فعل تلك العبادات بلا نَذْرٍ كان خيراً له ، والناس يقصدون بالنذر تحصيل مطالبهم ، فبيَّن النبى ﷺ أنَّ النَذْرَ لا يأتى بخير ، فليس النَذْرُ

سبباً فى حصول مطلوبهم ، وذلك أنَّ الناذر إذا قال : للّه علىَّ إن حفَّظنى اللّهُ القرآن أن أصوم مثلاً ثلاثة أيام ، أو إن عافانى اللّه من هذا المرض ، أو إن دفع اللّه هذا العدو ، أو إن قضى عنى هذا الدَيْن فعلتُ كذا ، فقد جعل العبادة التى التزمها عوضاً عن ذلك المطلوب ، واللّه سبحانه لا يقضى تلك الحاجة بمجرد تلك العبادة المنذورة ، بل يُنعم على عبده بذلك المطلوب ليبتليه أيشكر أم يكفر ؟ وشُكره يكون بفعل ما أمره به وترك ما نهاه عنه .

• نذر الطاعة لا ينفع ويجب الوفاء به ، ونذر المعصية يضر ولا يجب :

وأما تلك العبادة المنذورة فلا تقوم بشكر تلك النعمة ولا بِنعَم اللّه ، تلك النعمة ليعبده العبد تلك العبادة المنذورة التى كانت مستحَبة فصارت واجبة ، لأنه سبحانه لم يوجب تلك العبادة ابتداءً بل هو يرضى من العبد بأن يؤدى الفرائض ويجتنب المحارم ، لكن هذا الناذر يكون قد ضيَّع كثيراً من حقوق اللّه ثم بذل ذلك النذر لأجل تلك النعمة ، وتلك النعمة أجَلُّ من أن يُنعِم اللّه بها لمجرد ذلك المنذور المحتقَر ، وإن كان المبذول كثيراً والعبد مطيع للّه فهو أكرم على اللّه من أن يحوجه إلى ذلك المبذول الكثير ، فليس النذر سبباً لحصول مطلوبه كالدعاء ، فإنَّ الدعاء من أعظم الأسباب ، وكذلك الصدقة وغيرها من العبادات جعلها اللّه تعالى أسباباً لحصول الخير ودفع الشر إذا فعلها العبد ابتداءً ، وأما ما يفعله على وجه النذر فإنه لا يجلب منفعة ولا يدفع عنه مضرَّة ، لكنه كان بخيلاً فلما نَذَرَ لزمه ذلك ، فاللّه تعالى يستخرج بالنذر من البخيل فيعطى على النذر ما لم يكن يعطيه بدونه .. واللّه أعلم .

« تمت والحمد للّه وحده . وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً ، وذلك نهار الثلاثاء آخر شهر صفر من سنة تسع وأربعين وسبعمائة .. وحسبنا اللّه ونعم الوكيل » .

* * *